يسير كما سار أبو هلال العسكري مازجًا بينهما .

والواقع أن معظم الدارسين قد أغفلوا « الطراز » ، كما أغفلوا « العمدة » ، وكان لمفتاح السكّاكي جاذبية خاصة ، حتى إنه ابتداء من القرن السابع الهجري كان معظمُ المؤلّفين مُلَخِّصينَ أو شارحين للقسم الخاص بالبلاغة فيه ، بل تجاوز الأمر ذلك إلى تلخيص التلخيص ، ثم شرح هذا التلخيص . وقد قاد هذه العملية الخطيبُ القَزْويني ملخِّصًا وشارِحًا ، وكأن الدَّرْسَ القديم لم يعد فيه سوى ما قاله السكّاكي ، وكأنما قال الرجلُ الكلمة الأخيرة في البلاغة العربية !

والسكّاكي ليس مسئولاً عن كل ذلك ؛ إذ لم يفعل الرجلُ شيئًا سوى التنظيم والتنسيق ، وإكساب الدراسة القديمة ثوبًا علميا منطقيا ، محاولا إكمالَ جهد عبد القاهر بهذا الضبط الذي اهتمَّ به في « المفتاح » ، ولكن من جاءوا بعده أغراهم هذا المنهجُ فأسرفوا فيه ، بل من العجيب أنهم أهملوا كثيرًا من اللَّمحات الجمالية التي أوردها السكّاكي ، من مثل جعله مسألة الإيجاز والإطناب أمرًا نسبيا وإرجاعه الأمر فيهما إلى أواسط الناس ، ومن مثل ربط مباحث المعاني والبيان بطبيعة الصياغة وما فيها من انتهاك أحيانًا وعدول أحيانًا أخرى . وهي أمور لو نُظِر إليها بعين الفحص لأمكن ربطها بكثير من مباحث الأسلوب في العصر الحديث .

لقد كانت الملاحظة الأساسية – فيما عرضناه – تتمثل في امتزاج منهجين يتصلان بالصياغة الأدبية ، هما : النقد والبلاغة ، وذلك على الرغم من أن لكل منهما منحى خاصا ، يقوم على عملية التقويم في النقد ، والرصد الشكلي للصياغة في البلاغة .